

دروس وعبر من قصة الأبرص والأقرع والأعمى

عناصر الخطبة

نص القصة

شرح الحديث وما يستفاد منه

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "إِنَّ ثَلَاثَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ: أBRَصَ، وَأَقْرَعَ، وَأَعْمَى، أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا، فَأَتَى الْأَبْرَصَ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: لَوْ نُحَسِّنُ، وَجِلْدٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدَ قَدَرَنِي النَّاسُ. فَمَسَحَهُ، فَذَهَبَ عَنْهُ قَدْرُهُ، وَأَعْطِي لَوْنًا حَسَنًا. قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْإِبِلُ - أَوْ قَالَ: الْبَقَرُ شَكَّ الرَّأْيِ -، فَأَعْطِي نَاقَةَ عَشْرَاءَ، فَقَالَ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا. فَأَتَى الْأَقْرَعَ، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: شَعْرٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي هَذَا الَّذِي قَدَرَنِي النَّاسُ. فَمَسَحَهُ، فَذَهَبَ عَنْهُ، وَأَعْطِي شَعْرًا حَسَنًا. قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْبَقَرُ. فَأَعْطِي بَقْرَةً حَامِلًا، وَقَالَ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا. فَأَتَى، الْأَعْمَى، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: أَنْ يَرُدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصْرِي، فَأُبْصِرُ النَّاسَ. فَمَسَحَهُ فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيْهِ بَصْرَهُ. قَالَ: أَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْغَنَمُ، فَأَعْطِي شَاةً وَالِدًا، فَانْتَجَ هَذَانِ، وَوَلَدَ هَذَا، فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنَ الْإِبِلِ، وَهَذَا وَادٍ مِنَ الْبَقَرِ، وَهَذَا وَادٍ مِنَ الْغَنَمِ. ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الْأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مَسْكِينٌ، قَدْ انْقَطَعَتْ بِي الْحِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلَا بَلَاعَ لِي الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ، وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ، وَالْمَالِ، بَعِيرًا أَتَبَلَّغُ بِهِ فِي سَفَرِي. فَقَالَ: الْحَقُّوقُ كَثِيرَةٌ. فَقَالَ: كَأَنِّي أَعْرِفُكَ، أَلَمْ تَكُ أَبْرَصَ يَقْدُرُكَ النَّاسُ، فَقِيرًا فَأَعْطَاكَ اللَّهُ؟! ، فَقَالَ: إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا الْمَالِ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ! ! فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيِّرْكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ.

وَأَتَى الْأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا، وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ هَذَا. فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيِّرْكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ.

وَأَتَى الْأَعْمَى فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مَسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ انْقَطَعَتْ بِي الْحَبَالُ فِي سَفَرِي، فَلَا بَلَاغَ لِي الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصْرَكَ، شَاءَ أَنْبَلُغُ بِهَا فِي سَفَرِي؟. فَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصْرِي، فَحُذِّ مَا شِئْتِ، وَدَعِّ مَا شِئْتِ، فَوَاللَّهِ مَا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ بِسُنِّيِّ أَخَذْتَهُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَقَالَ: أُمْسِكْ مَالَكَ، فَإِنَّمَا ابْتُلَيْتُمْ، فَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْكَ، وَسَخِطَ عَلَيَّ صَاحِبِيكَ". (١)

شرح الحديث وما يستفاد منه:

قوله: (وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أنه سمع النبي ﷺ يقول: أن ثلاثة من بني إسرائيل).

اعلم أن جميع القصص الواردة في القرآن وصحيح السنة ليس المقصود بها مجرد الخبر، بل يقصد منها العبرة والعظة مع ما تكسب النفس من الراحة والسرور، قال الله تعالى: {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ} [يوسف: ١١١].

قوله: (من بني إسرائيل) بنو إسرائيل هم ذرية يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام.

يستفاد من هذا:

١- أن الرسول ﷺ يقص علينا أبناء بني إسرائيل لأجل الاعتبار والاعتاظ بما جرى وهو أحد الأدلة لمن قال: إن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه، ولا شك أن هذه قاعدة صحيحة. (٢)

٢- جَوَازُ ذِكْرِ مَا وَقَعَ لِمَنْ مَضَى وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ غَيْبَةً لَهُمْ وَلَعَلَّ هَذَا هُوَ السَّرُّ فِي تَرْكِ تَسْمِيَّتِهِمْ وَلَمْ يُفْصَحْ بِمَا اتَّفَقَ لَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ وَالَّذِي يَظْهَرُ أَنَّ الْأَمْرَ فِيهِمْ وَقَعَ كَمَا قَالَ الْمَلِكُ. (٣)

(١) أخرجه البخاري (٣٤٦٤)، ومسلم (٢٢٧٥ / ٤) رقم (٢٩٦٤) وغيرهما.

(٢) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين (١٠ / ٨٨٢ : ٨٦٩).

قوله: (أبرص) أي: في جلده برص، والبرص داء معروف، وهو من الأمراض المستعصية التي لا يمكن علاجها بالكلية، وربما توصلوا أخيرا إلى عدم انتشارها وتوسعها في الجلد، لكن رفعها لا يمكن، ولهذا جعلها الله آية لعيسى، قال تعالى: {وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي} [المائدة: ١١٠].

يستفاد من هذا:

٣- بيان قدرة الله - عز وجل - بإبراء الأبرص والأقرع والأعمى من هذه العيوب التي فيهم بمجرد مسح الملك لهم.

قوله: (فأراد الله) وفي بعض النسخ: (أراد الله). أي إن ثلاثة من بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى أنعم الله عليهم فأراد الله أن يتليهم.

قوله: (يتليهم) أي: يختبرهم، كما قال الله تعالى: {وَنَبَلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً} [الأنبياء: ٣٥]، وقال تعالى: {هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ} [النمل: ٤٠].

يستفاد من هذا:

٤- أن الله قد يتلي بعض عباده ليتعظ الآخرون ويتعلموا من أخطائهم فلا يقعوا في مثل ما وقعوا فيه.

٥- أن إرادة الله نوعان: كونية، وشرعية.

والفرق بينهما أن الكونية يلزم فيها وقوع المراد ولا يلزم أن يكون محبوبا لله، فإذا أراد الله شيئا قال له كن فيكون.

وأما الشرعية: فإنه لا يلزم فيه وقوع المراد ويلزم أن يكون محبوبا لله، ولهذا نقول: الإرادة الشرعية بمعنى المحبة والكونية بمعنى المشيئة. (٤)

قوله: (ملكا) أحد الملائكة: هم عالم غيبي خلقهم الله من نور وجعلهم قائمين بطاعة الله، لا يأكلون، ولا يشربون، يسبحون الليل والنهار لا يفترون، لهم أشكال وأعمال ووظائف مذكورة في الكتاب والسنة، ويجب الإيمان بهم، وهو أحد أركان الإيمان الستة.

يستفاد من هذا:

٥- أن الملائكة يتشكلون حتى يكونوا على صورة البشر، لقوله: "فأتى الأبرص في صورته"، وكذلك الأقرع والأعمى لكن هذا - والله أعلم - ليس إليهم وإنما يتشكلون بأمر الله تعالى.

٦- أن الملائكة أجسام وليسوا أرواحا أو معاني أو قوى فقط. (٥)

قوله: (قَدَرِنِ النَّاسِ) بفتح القاف والذال المعجمة المكسورة أي أشمأزوا من رؤيتي، وكرهوا مخالفتي من أجله، وفي رواية حكاهما الكرمانني قَدَرُونِي النَّاسُ وَهِيَ عَلَى لُغَةِ أَكَلُونِي الْبَرَاعِيثُ.

قوله: (فَمَسَحَهُ) أَي مَسَحَ عَلَى جِسْمِهِ، ليتبين أن لكل شيء سببا وبرئ بإذن الله تعالى.

(٤) يقول ابن عثيمين رحمه الله (فإن قيل: هل الله يريد الخير والشر كونا أو شرعا؟

أجيب: إن الخير إذا وقع، فهو مراد لله كونا وشرعا، وإذا لم يقع، فهو مراد لله شرعا فقط، وأما الشر فإذا وقع، فهو مراد لله كونا لا شرعا وإذا لم يقع، فهو غير مراد كونا ولا شرعا، واعلم أن الشر لا ينسب إلى فعل الله - سبحانه - ولكن إلى مخلوقات الله، فكل فعل الله تعالى خير؛ لأنه صادر عن حكمة ورحمة، ولهذا قال النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: ﴿والخير كله في يديك، والشر ليس إليك﴾ وأما مخلوقات الله، ففيها خير وشر).

(٥) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين (١٠ / ٨٨٢ : ٨٦٩).

قوله: (فذهب عنه قدره) بدأ بذهاب القدر قبل اللون الحسن والجلد الحسن؛ لأنه يبدأ بزوال المكروه قبل حصول المطلوب.

يستفاد من هذا:

٧- بيان قدرة الله وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

قوله: (فَقَالَ وَأَيُّ الْمَالِ) فِي رِوَايَةِ الْكُشْمِيهَنِيِّ بِحَذْفِ الْوَاوِ.

قوله: (الْإِبِلُ أَوْ قَالَ الْبَقَرُ) هُوَ شَكٌّ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْأَبْرَصَ وَالْأَقْرَعَ قَالَ أَحَدُهُمَا الْإِبِلُ وَقَالَ الْآخَرُ الْبَقَرُ وَقَعَ عِنْدَ مُسْلِمٍ عَنْ سَيِّبَانَ بْنِ فَرْوَجٍ عَنْ هَمَّامِ التَّصْرِيحِيِّ بِأَنَّ الَّذِي شَكَّ فِي ذَلِكَ هُوَ إِسْحَاقُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ رَاوِيَ الْحَدِيثِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ الْإِبِلُ كَمَا يَفِيدُهُ السِّيَاقُ.

يستفاد من هذا:

٨- حرص الرواة وأمانتهم في نقل الحديث بلفظه.

قوله: (فَأَعْطِيَ نَاقَةً عُسْرَاءً) أَيِ الَّذِي تَمَّتْ الْإِبِلُ وَالْعُسْرَاءُ بِضَمِّ الْعَيْنِ الْمُهْمَلَّةِ وَفَتْحِ الشَّيْنِ الْمُعْجَمَةِ مَعَ الْمَدِّ هِيَ الْحَامِلُ الَّتِي أَتَى عَلَيْهَا فِي حَمْلِهَا عَشْرَةَ أَشْهُرٍ مِنْ يَوْمِ طَرَقَهَا الْفَحْلُ وَقِيلَ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ إِذَا تَلَدَتْ وَبَعْدَ مَا تَضَعُ وَهِيَ مِنْ أَنْفَسِ الْمَالِ.

قوله: (يُبَارِكُ لَكَ فِيهَا) كَذَا وَقَعَ يُبَارِكُ بِضَمِّ أَوَّلِهِ وَفِي رِوَايَةِ سَيِّبَانَ بَارَكَ اللَّهُ بِلَفْظِ الْفِعْلِ الْمَاضِي

وَإِبْرَازِ الْفَاعِلِ، مَعْنَاهُ الدُّعَاءُ لَهُ بِالْبَرَكَةِ.

يستفاد من هذا:

٩- جواز الدعاء للغير بالبركة والنماء وكثرة الخير.

قوله: "فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسن" لم يكتف بمجرد الشعر، بل طلب شعرا حسنا.

قوله: "الذي قدرني الناس به" أي: القرع؛ لأنه كان أقرع كرهه الناس واستقذروه، وهذا يدل على أنهم كانوا لا يغطون رءوسهم بالعمائم ونحوها.

يستفاد من هذا:

١٠- أن الإنسان إذا كان في استطاعته أن يقدم خدمة للآخرين ينبغي عليه أن يسارع في ذلك.

قوله: "فأبصر به الناس" لم يطلب بصرا حسنا كما طلبه صاحبا، وإنما طلب بصرا يبصر به الناس فقط، مما يدل على قناعته بالكفاية.

قَوْلُهُ: (فَمَسَحَهُ) أَي مَسَحَ عَلَى عَيْنَيْهِ.

قوله: (قال: الغنم) هذا يدل على زهده كما يدل على أنه صاحب سكينه وتواضع؛ لأن السكينه في أصحاب الغنم.

قَوْلُهُ: (شَاءَ وَالِدًا) أَي ذَاتَ وَلَدٍ وَيُقَالُ حَامِلٌ، وقيل: إن المعنى قريبة الولادة، ويؤيده أن صاحبيه أعطيا أنثى حاملا.

قَوْلُهُ: (فَأَنْتَجَ هَذَانِ) أَي صَاحِبِ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَوَلَدَ هَذَا أَي صَاحِبِ الشَّاةِ وَهُوَ بِتَشْدِيدِ اللَّامِ وَأَنْتَجَ فِي مِثْلِ هَذَا شَاذٌ وَالْمَشْهُورُ فِي اللُّغَةِ تُتَجَّتِ النَّاقَةُ بِضَمِّ النُّونِ وَتَنْجُ الرَّجُلُ النَّاقَةَ أَي حَمَلَ عَلَيْهَا الْفَحْلَ وَقَدْ سُمِعَ أَنْتَجَتِ الْفَرَسُ إِذَا وَلَدَتْ فِيهَا نَتُوجٌ.

والأصل في اللغة في مادة (نتج) أنها مبنية للمجهول، والإشارة إلى، صاحب الإبل والبقر، و (أنتج)، أي: حصل لهما نتاج الإبل والبقر.

قوله: (وولد هذا) أي: صار لشاته أولاداً.

قوله: "فكان لهذا واد من الإبل" مقتضى السياق أن يقول: فكان لذلك؛ لأنه أبعد المذكورين، لكنه استعمل الإشارة للقريب في مكان البعيد، وهذا جائز، وكذا العكس.

يستفاد من هذا:

١١- أن بركة الله لا نهاية لها، ولهذا كان لهذا واد من الإبل، ولهذا واد من البقر، ولهذا واد من الغنم.

قوله: (ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الْأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ) أَي فِي الصُّورَةِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا لَمَّا اجْتَمَعَ بِهِ وَهُوَ أَبْرَصٌ لِيَكُونَ ذَلِكَ أَبْلَغَ فِي إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ.

وقيل: الصورة في الجسم، والهيئة في الشكل واللباس، وهذا الفرق بينهما.

يستفاد من هذا:

١٢- أن التذكير قد يكون بالأقوال أو الأفعال أو الهيئات.

١٣- جواز التمثيل، وهو أن يتمثل الإنسان بحال ليس هو عليها في الحقيقة، مثل أن يأتي بصورة مسكين وهو غني وما أشبه ذلك إذا كان فيه مصلحة وأراد أن يختبر إنسانا بمثل هذا، فله ذلك.

قوله: (رجل مسكين) وفي رواية (وابن سبيلٍ تَقَطَّعَتْ بِهِ الْحَبَالُ فِي سَفَرِهِ) وَالْحَبَالُ جَمْعُ حَبْلٍ أَيِ الْأَسْبَابِ الَّتِي يَقْطَعُهَا فِي طَلَبِ الرِّزْقِ وَقِيلَ الْعَقَبَاتُ وَقِيلَ الْحَبْلُ هُوَ الْمُسْتَطِيلُ مِنَ الرَّمْلِ وَالْحِيَالُ جَمْعُ حَيْلَةٍ أَيِ لَمْ يَبْقَ لِي حَيْلَةٌ ولبعض رُوَاةِ الْبُخَارِيِّ الْجَبَالُ وَهُوَ تَصْحِيفٌ، قَالَ ابْنُ التَّيْنِ قَوْلُ الْمَلِكِ لَهُ رَجُلٌ مَسْكِينٌ إِنْخَ أَرَادَ أَنَّكَ كُنْتَ هَكَذَا وَهُوَ مِنَ الْمَعَارِيضِ وَالْمُرَادُ بِهِ ضَرْبُ الْمَثَلِ لِيَتَقَيَّظَ الْمُحَاطَبُ.

قوله: (وابن سبيل) أي: مسافر سمي بذلك لملازمته للطريق، ولهذا سمي طير الماء ابن الماء لملازمته له غالباً، فكل شيء يلازم شيئاً فإنه يصح أن يضاف إليه بلفظ البنوة.

قوله: "انقطعت بي الحبال في سفري" الحبال الأسباب، فالحبل يطلق على السبب وبالعكس، قال تعالى: {فَلْيُمَدِّدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ} [الحج: ١٥]، ولأن الحبل سبب يتوصل به الإنسان إلى مقصوده كالرشاء يتوصل به الإنسان إلى الماء الذي في البئر.

قوله: "فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك" يعني: لا شيء يوصلني إلى أهلي إلا بالله ثم بك، فالمسألة فيها ضرورة.

قوله: "أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن" السؤال هنا ليس سؤال استخبار بل سؤال استجداء؛ لأن (سأل) تأتي بمعنى استجدى وبمعنى استخبر، تقول: سألته عن فلان، أي: استخبرته وسألته ما لا، أي: استجديته واستعطيته، وإنما قال: "أسألك بالذي أعطاك"، ولم يقل: أسألك بالله؛ لأجل أن يذكره بنعمة الله عليه، ففيه إغراء له على الإعانة لهذا المسكين؛ لأنه جمع بين أمرين: كونه مسكيناً، وكونه ابن سبيل، ففيه سببان يقتضيان الإعطاء.

قوله: (بعيراً) يدل على أن الأبرص أعطي الإبل.

يستفاد من هذا:

١٤ - أنه يجوز للإنسان أن ينسب لنفسه شيئاً لم يكن فيه من أجل الاختبار، لقول الملك: إنه فقير وابن سبيل.

قوله: (أَتَبَلَّغُ عَلَيْهِ) فِي رِوَايَةٍ أَتَبَلَّغُ بِهِ وَأَتَبَلَّغُ مِنَ الْبُلْغَةِ وَهِيَ الْكِفَايَةُ وَالْمَعْنَى أَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى مُرَادِي.

وقيل: أي: ليس أطيب الإبل وإنما يوصلني إلى أهلي فقط.

قوله: "الحقوق كثيرة" أي: هذا المال الذي عندي متعلق به حقوق كثيرة، ليس من حقت أنت فقط، وتناسى - والعياذ بالله - أن الله هو الذي من عليه بالجلد الحسن واللون الحسن والمال.

قوله: "كأنّي أعرفك" كأن هناك للتحقيق لا للتشبيه؛ والمعنى: أني أعرفك معرفة تامة. (٦)

قوله: "ألم تكن أبرص يقدرك الناس" ذكره الملك بنعمة الله عليه، وعرفه بما فيه من العيب السابق حتى يعرف قدر النعمة، والاستفهام للتقرير لدخوله على (لم)، كقوله تعالى: {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ} [الشرح: ١].

قَوْلُهُ: (لَقَدْ وَرِثْتُ لِكَابِرٍ عَنْ كَابِرٍ) فِي رِوَايَةٍ (كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ) وَفِي رِوَايَةٍ (إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا الْمَالَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ) أَي كَبِيرٍ عَنْ كَبِيرٍ فِي الْعِزِّ وَالشَّرَفِ.

فنظر كيف أنكر أن المال من الله، لكنه لم يستطع أن ينكر البرص.

يستفاد من هذا:

١٥ - ثبوت الإرث في الأمم السابقة، لقوله: "ورثته كابرًا عن كابر".

قَوْلُهُ: (فَقَالَ إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللَّهُ) أَوْرَدَهُ بِلَفْظِ الْفِعْلِ الْمَاضِي لِأَنَّهُ أَرَادَ الْمُبَالَغَةَ فِي الدَّعَاءِ عَلَيْهِ.

وقيل (إن): شرطية ولها مقابل، يعني: وإن كنت صادقًا فبقي الله عليك النعمة. (٧)

(٦) قال ابن عثيمين (لأنها أي الكاف إذا دخلت على جامد فهي للتشبيه، وإذا دخلت على مشتق فهي للتحقيق أو للظن والحسبان).

(٧) قال ابن عثيمين (فإن قيل: كيف يأتي بـ (إن) الشرطية الدالة على الاحتمال مع أنه يعرف أنه كاذب؟

أجيب: إن هذا من باب التنزل مع الخصم، والمعنى: إن كنت كما ذكرت عن نفسك، فأبقى الله عليك هذه النعمة، وإن كنت كاذبًا وأنت لم ترثه كابرًا عن كابر، فصيرك الله إلى ما كنت من البرص والفقر، ولم يقل: (إلى ما أقول)؛ لأنه كان على ذلك بلا شك.

والتنزل مع الخصم يرد كثيرا في الأمور المتيقنة، كقوله تعالى: {اللَّهُ خَيْرٌ أَمْ مَا يُشْرِكُونَ} [النمل: ٥٩]

قوله: "فصيرك الله إلى ما كنت عليه" أي: رذك الله إلى ما كنت عليه من القرع الذي يقدرك الناس به والفقير.

يستفاد من هذا:

١٦- جواز الدعاء المعلق، لقوله: "إن كنت كاذبا، فصيرك الله إلى ما كنت"، وفي القرآن الكريم قال الله تعالى: {وَالْحَامِسَةُ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ} [النور: ٧]، {وَالْحَامِسَةُ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ} [النور: ٩] وفي دعاء الاستخارة "اللهم إن كنت تعلم... إلخ".

١٧- جواز التنزل مع الخصم فيما لا يقر به الخصم المتنزل لأجل إفحام الخصم؛ لأن الملك يعلم أنه كاذب، ولكن بناء على قوله: إن هذا ما حصل، وإن الهال ورثه كابر عن كابر، وقد سبق بيان وروده في القرآن، ومنه أيضا قوله تعالى: {وَأِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَّيْ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} [سبأ: ٢٤] ومعلوم أن الرسول ﷺ وأصحابه على هدى وأولئك على ضلال، ولكن هذا من باب التنزل معهم من باب العدل.

قوله: "فرد الله علي بصري" أي اعترف بنعمة الله، وهذا أحد أركان الشكر، والركن الثاني: العمل بالجوارح في طاعة المنعم، والركن الثالث: الاعتراف بالنعمة في القلب.

قوله: "خذ ما شئت ودع ما شئت" هذا من باب الشكر بالجوارح، فيكون هذا الأعمى قد أتم أركان الشكر.

قوله: (لَا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ بِشَيْءٍ أَخَذْتَهُ لِلَّهِ) الْمَعْنَى لَا أَحْمَدُكَ عَلَى تَرْكِ شَيْءٍ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ مَالِي وَفِي رِوَايَةٍ (لَا أَجْهَدُكَ) أَي لَا أَشُقُّ عَلَيْكَ فِي رَدِّ شَيْءٍ تَطْلُبُهُ مِنِّي أَوْ تَأْخُذُهُ.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ أَحْمَدُكَ، أَي لَا أَطْلُبُ مِنْكَ الْحَمْدَ مِنْ قَوْلِهِمْ فَلَانُ يَتَحَمَّدُ عَلَى فَلَانٍ أَي يَمْتَنُّ عَلَيْهِ أَي لَا أَمْتَنُّ عَلَيْكَ.

ومعلوم أنه لا نسبة، وأن الله خير مما يشركون، ولكن هذا من باب محاجة الخصم لإدحاض حجته).

وقيل: الجهد المشقة، والمعنى: لا أشق عليكم بمنع ولا منة، واعترافه بلسانه مطابق لما في قلبه، فيكون دالا على الشكر بالقلب.

قوله: (لله) اللام للاختصاص، والمعنى لأجل الله، وهذا ظاهر في إخلاصه لله، فكل ما تأخذه الله فأنا لا أمنعك منه ولا أردك.

يستفاد من هذا:

١٨- بيان أن شكر كل نعمة بحسبها، فشكر نعمة الهال أن يبذل في سبيل الله، وشكر نعمة العلم أن يبذل لمن سأله بلسان الحال أو المقال، والشكر الأعم أن يقوم بطاعة المنعم في كل شيء.

١٩- فضيلة الورع والزهد، وأنه قد يجز صاحبه إلى ما تحمد عقباه؛ لأن الأعمى كان زاهدا في الدنيا، فكان شاكرا لنعمة الله.

قوله: (فَاتِمَا ابْتَلَيْتُمُ) أَي امْتَحِنْتُمُ، اختبرتم، والذي ابتلاهم هو الله تعالى.

يستفاد من هذا:

٢٠- أن الابتلاء قد يكون عاما وظاهرا.

قوله: (فَقَدْ رُضِيَ عَنْكَ) بِضَمِّ أَوَّلِهِ عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَجْهُولِ فِي رَضِيَ وَسَخَطًا قَالَ الْكِرْمَانِيُّ مَا مُحْصَلُهُ كَانَ مِرَاجِ الْأَعْمَى أَصْحَحُ مِنْ مِرَاجِ رَفِيقِيهِ لِأَنَّ الْبَرَصَ مَرَضٌ يَحْضُلُ مِنْ فَسَادِ الْمِرَاجِ وَخَلَلِ الطَّبِيعَةِ وَكَذَلِكَ الْقَرَعُ بِخِلَافِ الْعَمَى فَإِنَّهُ لَا يَسْتَلْزِمُ ذَلِكَ بَلْ قَدْ يَكُونُ مِنْ أَمْرِ خَارِجٍ فَلِهَذَا حَسُنَتْ طِبَاعُ الْأَعْمَى وَسَاءَتْ طِبَاعُ الْآخَرَيْنِ. (٨)

(٨) فتح الباري لابن حجر (٦/٥٠٢: ٥٠٣).

وقيل: يعني: لأنك شكرت نعمة الله بالقلب، واللسان والجوارح، فلذلك رضي عنك.

قوله: "وسخط على صاحبك" لأنها كفرنا نعمة الله - سبحانه، وأنكرا أن يكون الله منَّ عليها بالشفاء والمال.

يستفاد من هذا:

٢١- أن هذه القصة كانت معروفة مشهورة، لقوله: "فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبك"

٢٢- أن من صفات الله - عز وجل - الرضا والسخط والإرادة، وأهل السنة والجماعة يثبتونها على المعنى اللائق بالله على أنها حقيقة. (٩)، (١٠)

ومن جملة الفوائد أيضاً:

١- التَّحذِيرُ مِنْ كُفْرَانِ النِّعَمِ وَالتَّرغِيبُ فِي شُكْرِهَا وَالإِعْتِرَافُ بِهَا وَحَمْدُ اللَّهِ عَلَيْهَا.

٢- فَضْلُ الصَّدَقَةِ وَالحَثُّ عَلَى الرَّفْقِ بِالصُّعْفَاءِ وَإِكْرَامُهُمْ وَتَبْلِيغُهُمْ مَا رِبَّهُمْ.

٣- الزَّجْرُ عَنِ البُخْلِ لِأَنَّهُ حَمَلَ صَاحِبَهُ عَلَى الكَذِبِ وَعَلَى جَحْدِ نِعْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى. (١١)

والحمد لله رب العالمين

(٩) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين (١٠ / ٨٨٢ : ٨٦٩).

(١٠) وانظر إكمال المعلم بفوائد مسلم (٨ / ٥١٥)، شرح المشكاة للطبي الكاشف عن حقائق السنن (٥ / ١٥٣٣)، وشرح كتاب التوحيد لابن عثيمين وكذا شرح رياض الصالحين له.

(١١) فتح الباري لابن حجر (٦ / ٥٠٢ : ٥٠٣).